



بيير التونسي

شاعر الحب والشعب

- صديق المجلس البلدي ، اللدود ،
- حمل هموم الناس وجاع معهم وفضى بالنيابة عنهم
- عمل ، صيباً ، لدى العاملين لديه
- ملك الأغنية الشعبية
- كتب لأم كلثوم ٢١ أغنية

عندما ولدته أمه أوصته بالمجلس البلدى، فقا سمه نصف ما يأكل ونصف ما يملك. هوى المجلس سيطر على قلبه وفكره، تغنى به فأنشد قائلاً:

قد أوقع القلب فى الأشجان والكمد

هوى حبيب يسمى المجلس البلدى

ما شرد عن جفنى القريع سوى

طيف الخيال.. خيال المجلس البلدى

إذا الرغيف أتى فالنصف آكله

والنصف أجعله للمجلس البلدى

كان أمى بل الله تربتها أوصت

فقال أخوك المجلس البلدى

كم عانى شاعر الشعب بيرم التونسى من عذابات وهموم وأحلام، وذاق الظلم وصادق الفقر منذ مولده وعرف الجوع، عانى التشرد، والقهر صنوفاً والواناً، غريباً فى وطنه، منفيماً بين أهله وعشيرته. لم ترهبه قرارات الحكام ولا أسلحة الإنجليز، واجه الجميع بالكلمة التى تحولت إلى كبراج يلهب به ظهور جلاديه. قضى معظم حياته بعيداً عن حضن الوطن منفيماً فى تونس وفرنسا وسوريا، كلماته ألهمت المشاعر الوطنية وتغنى بها المحبون، تمايلوا على صوت أم كلثوم وهى تشدو بكلماته، «هوه صحيح الهوى غلاب؟»

كان بيرم التونسى وسيظل شخصية فذة فى تاريخ الفن والوطنية والمعاناة الإنسانية، فقد أحب وطنه وشعبه حباً ملك عليه نفسه، وكانت ضريبة هذا الحب غالية، دفعها بيرم راضياً، التحم بأزجاله بوجودان الناس فعاش فى قلوبهم، كان دائماً لسان حالهم غريباً منفيماً، أو بينهم.

ثائرهى كئاب

ءءل بفرم الءونسى الءارفر بأزجاله الشعبفة. الءى ملأء الأسماع والقلوب؁ وسارء بها ألءان المغنفرن والمغنفرات وقصائءه الءى تسبق أشهر الشعراء وأكثرهم عصبفة.

ولد بفرم الءونسى فوم الرابء من مارس (آذار) سنة ١٨٩٣م. فى ءارة السفالة فى ءى الأنفوشى؁ أءء أءفاء الإسكندرففة. والده من أصل ءونسى وأسمه الءقفقى مءمود مءمء مصطفى. وكان والده نساءباً للءرففر. ونظراً لأن ءءه الأءبر الءى ضم ءونس إلى الإمبراطورفة العءمانية كان اسمه «بفرم» أطلق الأب على ابنه اسم بفرم. ولكءرة ءءاول هذا الاسم كان أهل الءارة فنادونه «بفرم الءونسى».

ءبر مءمود وأءءله والده كئاب الشفء «ءاء الله» الءى كان فءفظهم الءروف بطرففة منعمة كالفواشفء. ومن الكئاب انءقل إلى مءرسة الرشاء الابدائفة. لءنه ءرك المءرسة هرباً من الشفء رءب مءرس اللغة العربفة.

عاشق الأساطفر

ءوفى والده فءل بفرم مكانه فى المءل؁ وكان فءلس على الكرسى وسط أكءاس الءرففر. وبءلاً من أن فءون هو صاءب العمل؁ انءءه العاملون صفباً لهم؁ ءفء كانوا فرسلونه لفشءرى لهم «العفش» والفلافل والءءءان المضع؁ ءم ءوففء والءءه؁ فءهب لفقفم فى بفء ءاله؁ ءفء ءعرف إلى أءء البنائفر الءى ءببه فى الإساطفر الشعبفة. وقراء قصة «السلك والوابور» وهى مءاورفة طرففة بفن «الءلغراف» والقفطار؁ وقراء «ألف لفة ولفة» وءكافة سفرة «أبو زفء الهلالى» ورفرها من الأساطفر؁ الءى ءرق فى بءورها.

وظهرأ مفع إلى الشعر مبكراً؁ فقء ءفظ الكءفر من أبفاء الشعر الءونسى على فء والءءه؁ وأنءن فن العروض عنءما أهءاه مءرس ءركى كان فسكن فى بفءهم كئاباً عن العروض؁ فءفظ ١٦ بءراً وفروعها فى لفة واءءة؁ وشرح له الأستاذ

«محمد ماهر» التركى معنى قصيدة يخاطب فيها الشاعر الساعة، فنظمها شعراً وأعجب بها المدرس، وكتب الخطاطون القصيدة على لوحات خشبية وباعوها فى الأسواق ونشرها صاحب جريدة المصرى على أنها قصيدة لشاعر عربى قديم.

أخوك المجلس البلدى

تزوج بيرم وعمره ١٧ سنة، ولم يكن قلبه قد عرف الحب بعد. اختار له أقاربه إحدى فتيات الأسرة، وكان فى ذلك الوقت يشتغل فى تجارة العقود، حيث كان يشتري العقود من البورصة ثم يبيعها، لكنه خسر فى هذه التجارة معظم ثروته، التى ورثها عن أبيه، وخوفاً من نفاذ ما تبقى له، اشترى له خاله بيتاً ليقيم فيه، وكان موظفو البلدية يقدرون «عوائد» البيت جزافاً، فكان يدفع جميع إيراد البيت مقابل تأجير بعض - غرفه - للبلدية، فكتب قصيدة يهجو فيها المجلس البلدى.

وذاعت هذه القصيدة فى القطر المصرى، كله، لأنها عبرت عن حال الناس ومتاعبهم من ظلم الضرائب وترجم موظفو البلدية - وكانوا كلهم أجنب - القصيدة إلى اللغات الأجنبية ونُشرت فى جريدة «الأهالى» وكانت هذه القصيدة بداية حياته الأدبية.

لاجريدة ولا مجلة

قامت ثورة ١٩١٩ وتحمس بيرم لها. ونظم أشعاراً ملتبهة. وكان يطمح إلى تأثير أكثر فى الجماهير، لذلك فكر فى الانتقال إلى القاهرة، وحاول الحصول على ترخيص لإصدار مجلة ورُفض طلبه، فعاد إلى الإسكندرية وأصدر مطبوعة بدون رخصة باسم «المسلة» وكان شعارها «المسلة - لا جريدة ولا مجلة».

وعندما شعر «بيرم» بأن الإنجليز ميعوا ثورة ١٩١٩ وأجهضوا أهدافها الوطنية، ووضعوا على العرش الملك فؤاد وأقاموا برلماناً مزيفاً كتب يهجو الملك:

ولما عدمنا بمصر الملوك
جا بوك الإنجليز يا فؤاد قعدوك
تمثل على العرش دور الملوك
وفين بلقوا نظيرك ودون
وخلوك تخالط بنات البلاد
على شرط تقطع رقاب العباد
وتسى زمان وقفتك يا فؤاد
على البنك تشحت شوية زتون
بذلنا ولسه بنبذل نفوس
وقلنا عسى الله يزول الكابوس
ما نابنا إلا عرشك يا تيس التيوس
لا مصر استقلت ولا يحزنون

هاج الملك وأصدر قراراً بنفى بيرم خارج مصر، لكن بيرم كان يتمتع بالحماية الفرنسية فلم ينفذ القرار، واستمر «بيرم» فى تحديه الملك، فعندما تزوج «نازلى» وأنجب فاروق بعد ٤ أشهر من زواجه، كتب زجلاً يهجو فيه فؤاد وشرفه المذبح فى قصيدة «قلت اسكتوا خلى البنات تستر مرمر يا زمانى يا زمانى مرمر»، فأصدر قراراً ثانياً بنفيه عن طريق القنصلية الفرنسية.

الأولة آه

اضطر إلى مغادرة البلاد التى أحبها، فذهب إلى تونس، وكان ذلك أواخر سنة ١٩١٩م. اعتبرته الإدارة الفرنسية فى تونس مُحرضاً على الثورة فى المستعمرات فوضع تحت المراقبة، وقبضوا على معارفه وأصدقائه، فأصبح وحيداً، وأخيراً هرب إلى فرنسا بعد أربعة أشهر من الغربة فى بلاد الأجداد.

وصل إلى مدينة ليون الفرنسية وقاسى الكثير بسبب الغربة، حاول أن يعمل لياكل، لكن العمل محرم على الأجانب، وأمضى شهرا كالصعلوك التائه. وعرف كيف يقاوم البرد بلا ملابس ولا مأوى، وكيف يتحمل الجوع بلا طعام، فلم يكن يأكل أكثر من وجبتين فى الأسبوع.

وجد «بيرم» عملاً فى إحدى شركات المنتجات الكيماوية التى تعمل فى المعادن القذرة والغازات الكيماوية الخائفة، إلا أنه تحمل حتى يدبر أجرة السفر ليهرب من ليون إلى أية مدينة أخرى.

وسافر إلى مرسيليا وأقام فيها خمس سنوات ثم استقر به المقام فى باريس، فأقام فى غرفة فوق سطح بناية. وقد عبر بيرم عن معاناته فى المنفى بقوله:

«الأولة آه

والثانية آه

والثالثة آه

الأولة أه وفى مصر

قالوا تونسى ونفونى

جزات الخير وإحسانى

والثانية تونس

وفىها الأهل جحدونى

وحتى الغير ما وافانى

والثالثة باريس

وفى باريس جهلونى

وأنا مولير زمانى»

كان فى باريس وقلبه فى مصر، ويعيش معاناة شعبه. واتفق بيرم خلال تلك الفترة مع عيد العزيز الصدر، صاحب جريدة «الشباب» التى كانت تصدر فى

مصر على أن يرسل إليه أشعاراً من الزجل ومقالات، على أن يعطى أجره إلى أسرته التي تركها بلا عائل، كما كان يرسل إنتاجه إلى مجلات «العيون» و «الإمام» و «أبوللو» و «النيل».

أعمال شاقّة

ظل بيرم يستوحى ذكرياته عن مصر ويكتب عن مشكلاتها وهمومها، وهو الذى ينام بغير طعام، ويقرا الناس أزجاله فيضحكون وهو يبكى الغربة. وحدثت الأزمة الاقتصادية فى العالم سنة ١٩٣٢م، وبرزت أزمة بطالة بين عمال فرنسا، فأعدت السلطات الفرنسية كل العمال الأجانب إلى بلادهم.

ولم يجد بيرم أمامه إلا العودة إلى تونس واضطر للعمل فى أعمال شاقّة حتى يكسب قوته، وأتفق بعد جهد مع صاحب جريدة «الزمان» للعمل لكنه اختلف معه بعد أن تبين له زيف وطنيته. وحصل بيرم على ترخيص بإصدار مجلة «الشباب» التى انتشرت وذاعت بين التونسيين وأصبحت تُقرأ من تونس حتى الدار البيضاء.

ونشر فى العدد الخامس عشر من المجلة قصيدة لشاعر جزائرى يهاجم فيها فرنسا وسياسة تحويل العرب إلى أوروبيين. ونشر بيرم نفسه قصيدة اسمها «الصمت» تدور حول المعانى ذاتها، فأصدرت السلطات قراراً بإغلاقها وحرمان بيرم من الكتابة فى الصحف التونسية. ثم صدر أمر بنفيه إلى السنغال وعدل القرار بناء على طلب بيرم بالنفى إلى سوريا، التى أقام فيها أكثر من عام متخفياً حتى أخرجته السلطات الفرنسية بعد أن تجاوز المدة المقررة للإقامة هناك.

العودة إلى الوطن

خرج من سوريا متجهاً إلى مرسلية، وكان ذلك سنة ١٩٣٨م، وكان الشوق إلى مصر قد استبد به، فقرر إما أن يعود إلى الأهل والأحباب، وإما أن يتخلص من نار الغربة بالانتحار.

كانت هذه الأفكار تموج فى رأسه، وتثور معها عواطف الشوق والحنين. عندما وقفت الباخرة دون سابق موعد فى ميناء بور سعيد لم يصدق بيرم ما رأى فرقص قلبه فرحاً، فيها هو الحلم على وشك أن يتحقق، ولمح أحد «البمبوتية» (الباعة الذين يزودون البحارة بما يحتاجون من مؤن البر). فقال له: «أنا مصرى ومنفى منذ زمن طويل، وأريد أن أرى أهلى وبلدى. رق قلب الرجل لحاله. وساعده على الهرب، وما أن ابتعد عن السفينة حتى جرى إلى المحطة وركب القطار ووصل إلى القاهرة بعد ٢٠ سنة فى المنفى.

أذاع راديو القاهرة نبأ هروب بيرم من الباخرة، وكان لا يغادر البيت إلا فى المساء ليجلس على مقاهى شارع عماد الدين، ولم يكن أحد يعرفه إلا بائع اليانصيب، الذى كان يعتقد أنه «خوارجا» إلا أن أمره اكتشف، وتدخل الأصدقاء للحصول له على العفو من القصر. وسعى الشيخ زكريا أحمد وسليمان نجيب مدير الأوبرا، لدى مدير الديوان الملكى. أحمد حسنين باشا فصدر عفو القصر عن «بيرم».

وتوسط كامل الشناوى لدى أنطون الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام لينشر «لبيرم» زجل العودة فى صدر الجريدة.

وسام الضنون

عمل بيرم فترة بعد العفو فى كتابة الأرجال الإعلانية لشركات بلجيكية مدة عام مقابل ٢٠ جنيهاً، وكان يكتب فى مجلة روز اليوسف وصحف الأهرام والأخبار وأخبار اليوم والمصرى والجمهورية.

وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢م. وحدثت جفوة بين بيرم والقيادة الجديدة، لأنه كان من محبى الملك فاروق. لكن مواقف بيرم الثورية، ونضاله الدائم ضد المستعمر والحكم المستبد قربته مرة أخرى من النظام الجديد، وسرعان ما انصهر شاعر الشعب فى بوتقة الثورة وليعبّر عن آمال أبناء مصر.

وعاش بيرم باقى أيام حياته بشكل كريم يليق بمكانته وجهاده وكفاحه . ورفض ، رغم المغريات ، أن يترك بيته ، الذى كان يقيم فيه فى حى السيدة زينب ، إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى يوم ٥ يناير سنة ١٩٦١م . وقبل موته منحتة الحكومة المصرية وسام الفنون والآداب فى السنة نفسها وتم إطلاق إسمه على شارع «سكة المدبح» الذى كان يسكن فيه .

القلب الكبير

لم يحب بيرم ، الذى كتب عن الحب أجمل الكلمات امرأة فى حياته ، ولكنه لم يكن يكره النساء . وكان يقول : «أحب نساء الدنيا جميعاً . يعجبني الجمال ، ويفتني الدلال . ومع هذا لم أحب امرأة فى حياتي ، فقد شغلتنى الحياة وكفاحها عن الحب ، إلا أنني أعرف الحب بأهاته ودموعه وتنهذاته ، وأعرف الهجران والتعذيب» .

وعاش «بيرم» مع النجوم من رجالات الأدب والفكر فكان نجماً بينهم . وقال عنه أمير الشعراء أحمد شوقي : «لا أخشى على الشعر العربي طغيان أحد أو شيء إلا بيرم وأدبه الشعبي» .

وكتب عباس محمود العقاد ، وهو شديد العداء لكل ما يكتب بالعامية ، عن أشعار بيرم : «الزمان ضنين بأمثال هذه العبقرية ، وهو لا ينفق منها بغير حساب ، وكانت آية الآيات فى بيرم أنه يفهم السريرة الناطقة بالعربية فى بواطنها الخفية قبل أن يحكيها بلهجاتها الكثيرة على الألسنة والأقلام ، فهو قادر على إبداع الحوار بكل لهجة ينطق بها اللسان العربى ، من ساحل الأطلسى إلى شط العرب ، ومايليها من أطراف وأنحاء» .

فصاحة وبلاغة

وقال عنه عميد الأدب العربى طه حسين «كنت ولا أزال ، من أشد الحاملين على اللغة العامية دفاعاً عن اللغة الفصحى ، لكن أرجال بيرم تجذبني إليها ،

وتغتصب إعجابى اغتصاباً، بما امتازت به من فصاحة وبلاغة فى ألفاظها ومعانيها».

وكتب توفيق الحكيم: «إذا كان بيرم من أصل تونسى، فمن العجيب أن يتقمص روح الشعب المصرى بشكل يندر أن تجده فى مصرى صميم، فإما أن تكون روح مصر من القوة، بحيث تطبع بطابعها الخالد من يأتى إليها ويعيش فيها بحب صادق وعميق، وإما أن يكون بيرم التونسى من أولئك الموهوبين الذى تنعكس فى قلوبهم صورة الشعب الذى يحتويهم. وما من شك فى أن بيرم قد جمع فى أدبه بين الأمرين».

وكتب يحيى حقى: «حينما نقرأ بيرم نشعر بأنه كان يتمنى أن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد مصر فى مصاف الدول الراقية. لا من حيث الثورة فحسب، ولكن من حيث الذوق والفن أيضاً، لم يحارب أحد الدمامة المادية والخلقية كما حاربها بيرم التونسى».

أغنية بلا دموع

لم يقتصر إبداع بيرم على الشعر والزجل، بل كتب الأوبريتات والمسرحيات، ومن ذلك أوبريت «شهرزاد» ذو الخمسة عشر لحناً، الذى لحنه سيد درويش وأخرجه عزيز عيد. وكتب مسرحية «عقيلة» ومسرحية «قسمت» أو ألف ليلة وليلة، كما كتب أغنيات مسرحية «الست هدى» التى ألفها أمير الشعراء أحمد شوقى.

كان بيرم يحفظ من الشعر ٢٠ ألف بيت وحمل لقب «ملك الأغنية الشعبية» وكتب لأم كلثوم ٢١ أغنية فى ١٨ سنة، أولها: «اللى فى الدنيا أنا وأنت، وأخرها «هو صحيح»، وغنى له عبد الوهاب أغنية واحدة هى: «محلها عيشة الفلاح» لقد كان بيرم أغنية عذبة بلا دموع، ولا آهات، وعاش حياته كلها يؤلفها ولم يسمعها، وعندما مات، وعتها أسماع الملايين.